

القصيدة البديعية بين الدرس البلاغي والإبداع الشعري

- بديعية جلال الدين السيوطي "نظم البديع في مدح خير شفيح" أمودجا -

أ. بوشلالق حليم

جامعة المسيلة

تمهيد:

يسعى هذا المقال إلى دراسة ظاهرة جديدة حلت على الشعر العربي منذ القرن الثامن الهجري كفن جديد استقل بذاته وإلى يومنا هذا إلى جانب الأغراض الشعري القديمة، وهذه الظاهرة هي ظاهرة البديعيات وبالضبط في قصيدة المديح النبوي لتتوسم هذه المقالة بـ: القصيدة البديعية بين الدرس البلاغي والإبداع الشعري -بديعية جلال الدين السيوطي "نظم البديع في مدح خير شفيح" أمودجا-.

1-البديع بين العلم والإبداع.

تكاد الآراء النقدية تتفق على أن بشار بن برد المتوفى سنة 783م، هو أول من فتح باب التجديد في الشعر، علة مصراعيه، فهو رأس طبقة المحدثين، وأنه من أوائل الشعراء الذين عنوا بالبديع بمعناه اللغوي الذي يعني الطريق والجديد. ولا يكاد النقاد يذكرون بشارا إلا وذكروا معه أبا نواس وابن الرومي وأبا تمام والبحري الذي عدّه بعضهم غاية ما يمكن أن تصل إليه الصياغة الفنية، وكان يمثل التطور في الموسيقى.¹

ويذكرون -النقاد- عبد الله ابن المعتز² (ت299هـ) باعتباره مجددا في الصورة وبخاصة في ما أدخله من عناصر جديدة على التشبيه استمدّها من بيئته الحضارية المترفة، وذلك في كتابه "البديع"، الذي نجده يقول في مقدمته: "وإنما عرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع".³

وقد استثمر ابن المعتز ما يريد على ثلاثمائة بيت من الشعر وباقة من الذكر الحكيم، وجملة من الأحاديث النبوية الشريفة، وكلام الصحابة، وقطعا من النثر الفني ليجزى عليها تطبيقاته البديعية.

وهذه النماذج التطبيقية التي أثبتّها ابن المعتز يمكن أن تعطي نظرة عامة عن مدى انتشار البديع في الأدب العربي لهذا العهد، ومدى احتفال الأدباء والشعراء بهذه الألوان الجديدة التي اكتسبت تعابيرها الفنية حلة من الجمال، ومظهرها من مظاهر الحداثة في الفكرة والأسلوب، مما يعكس إحساسهم بواقعهم من جهة، وانخراطهم في نمط جديد من أساليب التعبير لم تكن معروفة عند من سبقوهم، الأمر الذي أثار في نفوسهم -يضيف الأخضر عيكوس- رغبة الاكتشاف من أجل التجاوز.

وقد ظلت مثل هذه الرغبة تدفع الشعراء والأدباء على البحث عن ألوان البديع وتتبع كل غريب وطريف، بهدف إثارة المتلقي، والتعبير مما يجيش في النفس من أحاسيس وأفكار بفعل التعبير الحضاري الجديد الذي شهدته المجتمع العربي في العصر العباسي المنفتح على الحضارات والثقافات.

وقد فطن هؤلاء الشعراء إلى مراكز الإثارة عند المتلقي وحصروها في عقله الواعي وحواسه المدركة، ومن ثم اتجهوا في ابتكارهم الصور البديعية اتجاهين: فمنهم من اهتم بالغوص على المعاني، ومنهم من اهتم بالإيقاع الموسيقي والجماليات الصوتية⁴ -أي بين الإيقاع الداخلي، والإيقاع الخارجي- وذلك طبقا لمواهب الشعراء وقدراتهم الفكرية واللغوية.

ويجدر الإشارة هنا -في هذا المبحث- بالضبط هو المفهوم العام للبديع والبديعيات أي تحديد المفهوم اللغوي للبديعيات، والمفهوم الاصطلاحي لها، لأن الغاية الحقيقية هنا أيضا الوقوف والتعرف على البديعيات كفن جديد ظهر في الشعر العربي

أكثر من الاهتمام بها من الجانب البلاغي، وأيضا التعرف على أهم أعلام البديعيات في الشعر، بل والبحث عن أول من نظم في القصيدة البديعية، وفهم مضامينها أيضا والعلاقة بينها وبين المدائح النبوية.

2- المفهوم اللغوي للبديعيات:

إن التحديد اللغوي للفظ البديعية، يتطلب منا الوقوف والعودة إلى مادة "بدع" في المعاجم العربية، فقد جاء في معجم أساس البلاغة "ب د ع: أبدع الشيء وابتدعه: اخترعه، ويقال: أبدعت الركاب إذا كلت"⁵. وفي معجم "مقاييس اللغة" نجد: "بدع الباء والdal والعين أصلا: أحدهما ابتداء الشيء-وصنعه لا عن مثال آخر، والآخر الانقطاع والكلل".

فالأول قولهم: أبدعت الشيء قولاً وفعلاً، إذا ابتدأته لا عن سابق مثال، والله بديع السماوات والأرض، والعرب تقول: ابتدع فلان الركي إذا استنبطته، وفلان بدع في هذا الأمر، قال الله تعالى: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾⁶، أي ما كنت أول⁷.

وقد جاء في معجم "الوسيط" أيضا "بدعه: أنشأه على غير سابق، فهو بديع، وبدع بداعة وبدوعا: صار غاية في صفته خيرا كان أو شرا، فهو بديع، وأبدع: أتى بالبديع، وأتى بالبدعة، وبدعه: استخرجه وأحدثه"⁸.

والإبداع سمة الشاعر المبتكر، والكاتب المقتدر، وقد وضعه البلاغيون والنقاد في قمة الإنتاج، ومن هؤلاء ابن رشيق الذي فرق بينه وبين الاختراع -وإن كان معناه في العربية واحد- ذلك أن الاختراع: خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع: إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ، فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع فيلفظ بديع فقد استولى على الأمد، وحاز قصب السبق"⁹.

ونخلص إلى أن فن البديع هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة.¹⁰ ومن هذا وذاك نجد أن البديعيات كمصطلح لم يحدد لها تعريف لغوي، فهي لم تتناول من قبل ولم تلق حظها في المعاجم، وإن كان أغلب اللغويين يتفقون على أن معنى كلمة (بدع) بمعنى الإبداع والإتيان بالجديد المستظرف. من جهة أخرى نجد اختلافا من الناحية الاصطلاحية، حيث عرف مصطلح "البديعيات" تعريفات عدة كما سيتضح في التعريف الاصطلاحي.

3- المفهوم الاصطلاحي للبديعيات:

من المعلوم أن اللغة العربية تختلف عن باقي اللغات العالمية الأخرى باتساع دلالاتها، وعمق معانيها، وجمال أساليبها، وروعة صورها وبياناتها، ضف إلى ذلك رونق نطقها وحسن نطقه وخبرجه. فلا ريب إذن من كل هذا أن نكتشف فيها - في كل مرة- الجديد العجيب، ويبرز فن من الفنون يجسد نوعا من أنواع العلم الأدبي، ويعد محط أنظار الكثير بالدراسة والتحليل، وتعدو البديعيات من المصطلحات التي تضاربت الآراء والمفاهيم بشأنها، وفي هذا الصدد أحاول أن أتطرق لبعض التعريفات لهذا المصطلح.

يقول جودت الركابي: "لقد ظهرت في هذه العصور قصائد من البحر البسيط في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم تحوي كل فنون البديع عرفت بالبديعيات"¹¹. ونجد أيضا زكي مبارك يقول عند حديثه عن المدائح النبوية -عامة- وما أثارته قصيدة البردة للبوصيري -خاصة- ما إذ كانت حافزا لكتابة قصائد على منوالها، قائلا: "وقد افتن ابن جابر بقصيدة

البردة وظهر أثرها في شعره، فقد شغل نفسه بمعارضة البردة، ولكن أي معارضة؟ لقد ابتكر فنا جديدا هو "البديعيات" وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع.¹² ومن الأهمية بمكان لا بد أن نذكر تلك الدراسة التي قام بها علي أبو زيد حول البديعيات، والتي كانت -على ما يبدو- منطلقا ومرتكزا في بعض جوانب الموضوع، فتحديده لمفهوم "البديعيات" كان من منطلقين: "تعريف عام وخاص" محاولا بذلك موائمة كل القصائد التي تبت في هذا الميدان وجعلها في دائرته، ورسم خطوطا عريضة تحدد أطره، لذا كان لزاما أن ندرجها ههنا.

فالتعريف العام: "الذي شمل جميع البديعيات على شيء من التعميم الذي يخرجها عن دقة التحديد تعتبر فيه البديعية قصيدة طويلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم -ونادرا غيره- يتضمن كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع، يكون هذا البيت شاهدا عليه، وربما وري باسم النوع البديعي في البيت نفسه في بعض القصائد"¹³ فهي إذن قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن لونا من ألوان البديع.

أما التعريف الخاص "فهو قصيدة طويلة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على بحر البسيط، وروي الميم المكسورة، يتضمن كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع، يكون هذا البيت شاهدا عليه، وربما وري باسم النوع البديعي في البيت نفسه، في بعض القصائد"¹⁴.

ويظهر الفرق بين التعريفين أن الثاني مخصص مقيد، يخرج القصائد ذات الأبيات القليلة أولا، ثم يخرج القصائد التي قيلت في مدح غير رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي جاءت في مرحلة متأخرة وعلى ندرة، وينحي القصائد التي كانت على غير روي الميم المكسورة والبحر البسيط¹⁵، اقتداء برائد المدائح النبوية البوصيري في برده ومحاكاته لها.

والبديعيات فن من الفنون المستحدثة في القرن الثامن الهجري، وهي تشتمل على خصائص مشتركة مع ما جرى مجراها شكلا وموضوعا منذ للقرن الثامن الهجري، وأهم تل الخصائص هي التي ذكرت سابقا في التعريف الخاص للبديعية.

والمتنعم في البردة البديعية يجدها "تنسم بالتصنع والتكلف، لأن الشاعر يبذل جهدا عظيما في الملائمة بين معاني المدح النبوي، وبين إيراد النوع البديعي وسبك شاهده، وهذا جهد عقلي محض يذهب بالشاعرية والرواء الشعري، ويدخل الشاعر في المعازلة والضرورات الشعرية، ويجول القصيدة إلى معان جامدة تفتقد حرارة العاطفة، وإن وجدت التعبيرات الجامدة التي تشير إلى وجود عاطفة مشبوبة عند الناظم".¹⁶

ومنه فالبديعيات كما يقال، هي برزخ بين المدائح النبوية ذات الحس الوجداني، وبين المنظومات التعليمية التي انعدمت فيها العاطفة.¹⁷

والبديعيات أيضا عبارة عن قصائد طول في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، بحيث يتضمن كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع.

4- جلال الدين السيوطي وبديعته (حياته ومصنفاته):

أ- حياته:

هو الإمام فخر المتأخرين، علم أعلام الدين، خاتمة الحفاظ عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين ابن همام الدين الخضير السيوطي، ولقب رحمه الله بجلال الدين، وكنيته: أبو الفضل.

ولد بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب ستة تسع وأربعين وثمانمائة هجرية، كان أبوه عالماً من الأعلام، وفقهياً من فقهاء الشافعية المرموقين، توفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، الذي كان شديد الحرص على توجيهه الوجهة الصالحة، فحفظ القرآن الكريم وهو لا يزال صغيراً.

ويذكر المؤرخون أن أباه قد طلب من الشيخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني أن يدعوا له بالبركة والتوفيق فكان من أكبر الحفاظ¹⁸

ب-مصنفاته:

لم يدع السيوطي فناً إلا وكتب فيه، وبدأ في التأليف في سن مبكرة مازجاً، بين مؤلفات في العلوم العربية والبلاغة، ونذكر هنا أهم تصانيفه على سبيل المثال لا الحصر¹⁹:

-الأخبار المروية في سبب وضع العربية.

-الأشباه والنظائر في النحو.

-الاقتراح في علم أصول النحو.

-الألفاظ المعربة.

-المزهر في علوم اللغة.

-حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

-حسن المقصد في عمل المولد.

-نظم البديع في مدح خير شفيع، وهذه القصيدة البديعية هي التي بين أيدينا.

5-الصور البديعية في شعر السيوطي من خلال بديعته "نظم البديع في مدح خير شفيع":

يشتمل كتاب نظم البديع في مدح خير شفيع على القصيدة في 132 بيت عليها شرح يتضمن 132 باب لأنواع البديع والبلاغة.

أولاهما: براعة المطلع، أو براعة الاستهلال* في قول السيوطي²⁰:

من العقيق ومن تذكّار ذي سلم *** براعة العين في استهلالها بدم

إنها بداية ومطلع ينم عن تألق شعر جذاب يجمع بين سهولة اللفظ وعمق المعنى، فالتلقي يتوارد إلى ذهنه المعنى بعفويته وبساطته لحسن سبكه ووقع ألفاظه، ويندمج مع الخطاب من خلال إيجاءات المطلع، فهو براعة استهلال لقصائد البديعيات، ونسج في الوقت نفسه، على منوال القصيدة العربية التي لا يبدأ مطلعها إلا بوقفة طليّة؛ لأن الشاعر في العصر الجاهلي وقف وبكى واستبكى لفراق الأحبة ورحيلهم عن دورهم، والمعادلة تبقى واحدة، مع اختلاف مكانة المحبوب وكذا الديار؛ فهي مقدسة لصلتها بأنبل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

فالشاعر -وعلى عادة من سبقه في نظم القصيدة البديعية كصفي الدين الحلي في بديعته "الكافية البديعية"- استهل قصيدته بالغزل معبراً عن معاناته وآلامه فهو يبكي الديار التي غدت أطلالاً، فالبكاء والشجن يجسد حبا وطيد الصلة بهذا الطلل "الرمز"²¹.

ولأن في المديح النبوي التغزل والتشبيب بالأمكنة الحجازية كالعقيق وذي سلم وكاظمة وإضم والنقا ولسع وحاجر، وذلك ظاهر في البيت وما أحسن التورية الواقعة في التسمية حيث جعلت براعة العين في استهلالها بالبكاء بالدم بدل الدمع، وذلك من إكثار ذكرها للعقيق وبكائها له حتى غلبت الحمرة على الدمع مجانسة للعقيق حين معناه²².

إن البراعة براعة المطلع وحسن الاستهلال لا تتم فقط عن الإبداع بل عن ورود الغزل في شكل بديعي حمل في طياته دلالات عميقة (فسلح وسلم) رموز مكانية يستحضرها الشاعر ويتمثلها تمثلاً روحياً في شعره. وثانيهما: حسن الاتساق في قوله²³:

والروح أخدم والرحمن كلم والـ *** أملاك قدم في حسن اتساقهم
وحسن الاتساق الإتيان بجمل متلائمة معطوفة عطفاً متلاحماً.

وثالثهما: يصل السيوطي إلى باب آخر من أبواب البديع وهو حسن التعليل في قوله²⁴:

لو لم يكن كفه الوافي سحاب ندى *** لما استقوا منه تعليلاً لوردهم
وحسن التعليل هو أن يدعي لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي في الواقع.
ويصل أيضاً إلى باب آخر هو باب السهولة وذلك في قوله²⁵:

يا رب سهل سريعاً بالحق بهم *** فضلاً وأدمج محباً في لوائهم

والسهولة هي خلو اللفظ من التعقيد والتكلف، والانسجام متحدان أو متقاربان، والإدماج (أن يدمج) معنى في آخر في ضمن ما سبق له الكلام وأدمج في ضمن البيت شكوى الدهر وما فيه من (الفتن)؛ بحيث أوجب تمني الموت سريعاً والإقامة في بطن الأرض ومفارقة ظهرها والحق بمؤلاء الصالحين والمالء الأعلى.
وآخر ما يختتم به السيوطي بديعته بباب حسن الاختتام؛ وذلك في قوله²⁶:

واكتب مدى العمر في الدنيا لنا حسناً *** حتى أرى عند موتي حسن مختتمي

وحسن الاختتام أو براعة الختام²⁷ أن يؤتي بكلام بما يوزن بالختام، وهو في البيت ظاهر لا يحتاج إلى بيان²⁷.

هنا وفي هذا البيت تتم البديعية المسماة "نظم البديع في مدح خير شفيع" للإمام جلال الدين السيوطي.

وبهذا نرى أن البديعيات لم يكن الغرض منها مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب، إنما كان الغرض منها أن تجمع كل أنواع البديع، وفنونه، فهي قصائد تعليمية تقصّد إلى تعليم الناشئة صور البديع ومحسناته اللفظية والمعنوية²⁸، على أن وظيفة البديع هي التحسين، وأن هذا التحسين قد يكون في اللفظ، وقد يكون في المعنى؛ وبالتالي فإنه يوجد البديع اللفظي والبديع المعنوي²⁹؛ فجمع بذلك السيوطي بين المتعة والفائدة، ووافق بين الذوق والإحساس، والتعبير الجميل.
الهوامش:

¹ - ينظر: الأخضر عيكوس، ظاهرة انتشار البديع في الشعر العربي وموافقة النقاد البلاغيين منها، مجلة كلية الآداب وجامعة محمد الأول، المغرب، العدد: 07، 1999م، ص: 11.

² - رأى مؤرخو البلاغة العربية أنه يعد أول تاب في البلاغة عامة، والبديع خاصة، وأنه فيه ثمانية عشر محسناً، ضم فيه المحسنات البديعية الخالصة الصور البيانية الأساسية وهي الإستعارة والتشبيه والكناية، ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، (د.ت)، ص: 358.

³ - أبو العباس عبد الله ابن المعتز، كتاب البديع، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط: 1، 2001م، ص: 12، 13.

⁴ - ينظر: الأخضر عيكوس، ظاهرة انتشار البديع في الشعر العربي، ص: 12.

⁵ - الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (بدع)، ص: 35.

⁶ - سورة الأحقاف، الآية: 9.

- ⁷ - أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مج1، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط:1، 1991م، مادة (بدع)، ص: 209.
- ⁸ - إبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، أحمد حسن الزيات، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، مج1، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، 1989م، (د.ط)، مادة (بدع)، ص: 43.
- ⁹ - ابن رشيق، العمدة، 419/2.
- ¹⁰ - أنعام نوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، مراجعة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط:2، 1417هـ، 1996م، ص: 257.
- ¹¹ - جودت الركابي، الأدب العربي من الازدهار إلى الانحدار، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط:02، 1982م، ص: 132.
- ¹² - زكي مبارك، المدائح النبوية، ص: 205.
- ¹³ - ينظر: علي أبو زيد، البديعيات في الأدب العربي، نشأتها، تطورها، أثرها، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط:1، 1403هـ، 1983م، ص: 46.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁶ - محمود سالم محمد، المدائح النبوية، ص: 515.
- ¹⁷ - فاطمة عمراني، المدائح النبوية، ص: 146.
- ¹⁸ - جلال الدين السيوطي، نظم البديع في مدح خير شفيع، تحقيق: علي محمد معوض وعادل عبد الموجود، دار القلم العربي، حلب-سوريا، ط:1، 1995م-1416هـ، ص: 29-31.
- ¹⁹ - المرجع نفسه، ص: 35، 36.
- * براعة الاستهلال: هو أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بنيت عليه، ويسمى أيضا "حسن الابتداء"، ينظر: صفي الدين الحلي، كتاب شرح الكافية البديعية في محاسن البلاغة وعلوم البديع، تحقيق: نسيب نشاوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط، د.ت)، ص: 57، وينظر: أنعام نوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، البديع والبيان والمعاني، مر: أحمد شمس الدين، طبعة جديدة منقحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:2، 1996م-1417هـ، ص: 261.
- ²⁰ - السيوطي: المرجع السابق، ص: 46.
- ²¹ - بن سعد الله نورة، البديعيات مضمونها ونظامها البلاغي -بديعية ابن الخلف نموذجاً- مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 1426هـ-1427هـ/ 2007م-2008م، ص: 80.
- ²² - السيوطي، المرجع السابق، ص: 47.
- ²³ - السيوطي، المرجع نفسه، ص: 112.
- ²⁴ - السيوطي، المرجع نفسه، ص: 141.
- ²⁵ - السيوطي، المرجع نفسه، ص: 197.
- ²⁶ - السيوطي، المرجع نفسه، ص: 198.
- ** براعة الختام: حقيقة هذا النوع هو أن يختم الشاعر قصيدته بأحسن بيت يحسن السكوت عليه، لأن غاية ما ينتهي السامع إليه، وربما حفظ دون غيره لعدوبته، وقربه من ذهن السامع، وحكم للقصيدة بالملاحاة بواسطته ولو كانت سمجة، وإن خالف ذلك حكم لها بالركاكة ولو كانت بليغة، لأنها بواسطته يضيع ما في وسطها من المحاسن التي بها، وليأمن الشاعر على نظمه من نظر عائب، إذا جود في ثلاثة مواضع الأول براعة المطلع، والثاني براعة التخلص، والثالث: براعة الختام، فيصرون حينئذ كالحصن للقصيدة، فلا يقدر أحد من النقاد يسطو عليها ويسمى هذا النوع أيضا حسن الختام، وحسن المقطع، ينظر: أنعام عكاوي، المرجع السابق، ص: 264، 265.
- ²⁷ - السيوطي، المرجع السابق، ص: 198.
- ²⁸ - شوقي ضيف، التقد، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط:04، 1954م، ص: 131.
- ²⁹ - جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط، د.ت)، ص: 75.